

أساطير المدينة المقدسة

السفير أ.د./ عبد الملك منصور المصعبي

رئيس مؤسسة المنصور الثقافية للحوار بين الحضارات

مهاد

لا يحتاج كاتب عربي - في ظني - إلى سبب يستقره للكتابة عن القدس، فكل يوم، بل كل ساعة وكل دقيقة، تطاردنا القنوات الفضائية والصحف السيارة بما يدفع أي كاتب على وجه العمورة دفعًا إلى الكتابة عن القدس، ناهيك عن تأملها من حيث كونها مدينة استثنائية بين مدن الأرض، أو تأملها كقضية إنسانية بالدرجة الأولى، وسياسية من حيث تناولها في الوسائط الإعلامية المختلفة.

أقول لا يحتاج كاتب عربي إلى سبب يصدره دافعًا للكتابة عن القدس، غير أن هذه الدراسة تحديدًا وقف وراءها سببان:

الأول: المحاولات المتكررة من جانب اليهود في الآونة الأخيرة للحفر تحت المسجد الأقصى بغرض الإضرار بالمبنى.

الثاني: رواية قرأتها مؤخرًا صدرت في القاهرة.

أما عن السبب الأول؛ فإن اليهود يتعاملون مع المدينة وكأن الصراع السياسي الدائر بين العرب واليهود منذ ما يقرب من قرن من الزمان ينبني على أسس أركيولوجية وحسب، وهو ما تحاول إسرائيل تصديره للعرب، فمن لا يملك أثرًا في المدينة فليس له أحقية فيها، ومن يثبت أن له في تاريخ المدينة المقدسة أثرًا فهو المالك للمدينة المقدسة لا محالة!

يتجاهل اليهود أن الصراع الدائر حول المدينة المقدسة وحول فلسطين عامة إنما هو صراع ميثولوجي - إن صح لنا أن نستخدم هذا التعبير (صراع ميثولوجي) - حيث ينبني الصراع العربي الإسرائيلي في حقيقة الأمر على مجموعة من الأساطير والأساطير المضادة، وهو - في ظني - ما أطال أمد القضية حتى اللحظة، وهو ما سنفصل فيه القول لاحقًا.

الثاني: قلت رواية صدرت في القاهرة مؤخراً بعنوان "ملاك الفرصة الأخيرة"¹ للروائي المصري سعيد نوح، وهو روائي من جيل الوسط.

تبحر بنا الرواية في أجواء أسطورية حينما يستنفد المرء كل السبل ويصل إلى أقصى قدرة له على الصمود حين ذلك يظهر ملاك الفرصة الأخيرة، ذلك الذي يمدنا بأسباب البقاء .. يظهر من مكان غير معروف .. ربما جاء – حسبما يقول الراوي – في صورة مطر يسقط في شهر أغسطس، أو ريح عابرة للقارات، ربما تنكر في صورة قط يخمش بابك، أو عصفور رقيق، لكنه أبداً يأتي، يأتي حينما نكون محطمين ومرتعشي الفؤاد .. يأتي حينما نكون في أمس الحاجة إليه .. هو في الحقيقة لا في الخيال الشخص الوحيد الذي ننتمي إليه .. حينما يأتي تحل فينا البصيرة النافذة فتوسع منظور الرؤية، ونرى أنفسنا للمرة الأولى الأكثر جمالاً والأرحب في الأبعاد الروحية .. إنها الثقة بالنفس التي يقال عنها .. لا إنها الثقة في الروح .. روح ملاك الفرصة الأخيرة.

قد يتساءل البعض – ويكون محقاً -: وما علاقة ذلك بالمدينة المقدسة وفلسطين؟

تدور الرواية حول ذلك الملاك الذي يسرع لإنقاذ كثيرين في آخر لحظة يمكن أن يدركهم فيها أحد .. لكنه وطوال تاريخه الطويل – الذي هو تاريخ الإنسان من لدن آدم وحواء في الجنة – طوال هذا التاريخ انشغل مرة .. تأخر عن أداء عمله .. لقد كان في انتظاره – منذ ساعة أو يزيد – بالخليل أب مكلوم في بيته وفي أسرته وفي وطنه كله ..

"عند ذلك تذكر ملاكنا أنه لم يذهب إلى عمله .. دار في الأرض عدة دورات وهو يصرخ ويقول: لقد أضعت شخصاً ما في الخليل يا لمأساة ما صنعتُ يا الله! لقد أضعته تماماً، وحطمت حياته وحياة أسرته. قطعت عليه طريق النجاة الوحيد للتغيير والإنصاف ككل الناجين الذين أدركهم في اللحظة الأخيرة"

أتدرون ما اسم هذا الرجل الذي كان ينتظر ملاك الفرصة الأخيرة في الخليل؟
اسمه: فلسطين.

¹ سعيد نوح: ملاك الفرصة الأخيرة، ط1، دار فكرة للنشر، القاهرة، 2008.

الرواية ككل الروايات التي تعالج القضية الفلسطينية أو تعتمد على حكاياتها .. لكنها تختلف اختلافات نوعية في طبيعة التناول .. لقد حاول سعيد نوح صنع أسطورة موازية لتلك التي تحكى عن فلسطين في كتب التفسير الديني سواء اليهودي أو المسيحي أو الإسلامي.

فلسطين ضاعت عند سعيد نوح لأن ملاك الفرصة الأخيرة انشغل عن عمله .. تكاسل .. لأنه أحبَّ خطية – إحدى شخصيات الرواية – التي وظفها الشيطان لكي تشغل الملاك حتى لا يدرك فلسطين ذلك الرجل الذي تشرده هو وأسرته .. وطوال الرواية يذهب الراوي ويجيء ليسرد بدايات هذه الخطيئة ومنتهاها.

هذه الأسطورة الروائية التي نسجها سعيد نوح هي ما دفعني إلى تأمل مجموعة الأساطير التي نسجت حول المدينة المقدسة، غير أنه يلزمني بداية التركيز على أمرين أراهما في غاية من الأهمية:

أولاً: الأسطورة حول المكان لا تثبت أحقية أصلاً، فليس معنى تداول مجموعة من الحكايات إن صحيحة أو كاذبة، ونصدقها أنا وبنو جلدتي، ليس معنى هذا أن تجد هذه الحكايات شرعية لوجودها على الأرض، يتساوى في ذلك اليهود والمسيحيون والمسلمون .. فالأساطير لا تؤسس حقاً، بل إن تأسيس الحقوق وشرعيتها يعتمد أولاً وأخيراً على لغة القوم وتاريخهم، ومدى انسجام خلاياهم مع ما يعيشون فيه من إقليم ثقافياً واجتماعياً ودينياً.

ثانياً: الأسطورة ليس معناها الخرافة .. ليس معناها الكلام الذي لا يعتمد على منطق أو عقل .. الأسطورة ليس معناها كلام الغابرين .. ليست كلام الله، وليست كذلك عكس كلام الله .. الأسطورة هي مجموعة الأفكار – أي أفكار – التي يعتنقها القوم – أي قوم – والتي يمكن لأجلها تحمل المشاق، بل وملاقة الموت بنفس راضية .. الأسطورة بهذا المعنى تعيد ترتيب الواقع وفق بنيتها وتحاول تطبيق هذا الترتيب على الأرض .. الأسطورة بهذا المعنى هي من أتى بيهود مشتت من أوطانهم إلى أرض ليست لهم وطناً.

وفق هذا المعنى الذي رتبناه لمعنى الأسطورة؛ وقف المتنبى في الرواية المتداولة وهو هارب من فرسان يطارده، فقال له غلامه:

يا سيدي ألسـت القائل:

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

الخيـل والليل والبيداء تعرفني

فوقف المتنبـي، فقتل.. أتدرون ما حدث؟ لقد صدق المتنبـي أسطوره لحظة فدفع عمره
جزاء هذا الإيمان العميق بالأسطورة. وإن كنا هنا نود التفريق بين الأسطورة الذاتية
والأسطورة الجماعية.

وفق هذا التحليل كذلك أود التأكيد على أن الأسطورة لا تُوصف بالصدق أو بالكذب،
بل إن من أهم سماتها أن يصدقها أناس ويكذبها آخرون، وجلُّ ما يمكن أن تحظى به
الأسطورة الإيمان أو الكفر، فإن وجدت من يؤمن بها فهي أسطورة، وإن لم تجد من يؤمن بها
فهي محض خرافة.. فالأسطورة تشبه الدين، تدفع المؤمنين بها إلى الشهادة.. تفرق بين بني
البشر، أما الخرافة فهي للتسلية وغالبًا ما تجمع بين بني الإنسان.

وحتى لا يربط أحد بين الدين وبين الأسطورة أجدني مضطرًا إلى القول بأن الأديان
هي أكثر الأشياء الداعمة لبناء الأسطورة، لكنها ليست الأسطورة.. بمعنى أكثر دقة تعتمد
الأساطير على المعارف الدينية، وتأول نصوصها حتى تكتسب الأسطورة شرعية أكثر
رسوخًا.. الأديان نصوص مقدسة.. أما الأساطير فتأويل للنصوص المقدسة، ونصوص
بشرية أخرى، وأفكار، وحكايات، وقصص، وخرافات، ومصالح، وأجناس، وإبداعات.. وكل
ما يمكن أن يدعم تبرير وجودك أو وجودي أو وجوده في الحياة.

الأسطورة هي مجموعة العلامات السيميوطيقية التي تظهر فجأة في خيالك عند ذكر
كلمة ذات صلة بموضوع ما، ويتحكم في طبيعة مجموعة العلامات التي تلمع في ذهنك
مجموعة القواعد الحاكمة لوجودنا.. الديانة مثلاً أحد هذه القواعد الهامة، التاريخ والجغرافيا،
الحضارة، الثقافة واللغة، الهم العام. أما مجموعة الشروط الاجتماعية الخاصة بكل فرد مثل
درجة التعليم، والطبقة، فتكاد تكون معدومة الأثر في طبيعة العلامات التي يمتلئ بها الخيال
عند ذكر كلمة ذات صلة.. ولنأخذ مثلاً كلمة القدس؛ تلك الكلمة المشحونة بمجموعة غير قليلة
من الشحنات الثقافية والسياسية الدالة، إنها بمجرد نطقها تلمع في ذهن صور أيقونية.. فهي
الصراع العربي الإسرائيلي، هي بيت المقدس، المسجد الأقصى، قبة الصخرة، البراق،

الإسراء والمعراج، هي الحق الضائع .. إن مجموعة من الصور يتم استدعاؤها بمصاحبة هذه الكلمة ليست كلها طيبة، فكما تتمثل أمامنا قبة الصخرة فإن شارون بصورته القميئة يلازمها .. وكما نرى المسجد الأقصى فإن ذلك المعتوه الذي أحرقه عام 1969 يظهر داخل هذا الكادر المقدس.. القدس تعني اللاجئين الذين شردوا من وطنهم ووطن آبائهم وأجدادهم، وتعني الترانسفير وتوطين بشر في وطن لا يعرفون عنه ولا عن جغرافيته شيئاً، اللهم إلا ما سمعوه عن أسطورة لا يؤمن بها غيرهم.

لكن هذه العلامات السيميوطيقية التي استدعتها الذهنية العربية الإسلامية ليست بالضرورة هي نفسها العلامات التي تستدعيها الذهنية اليهودية الصهيونية، فإذا كانت القدس وفلسطين تعني لنا وطنًا على وشك الضياع، فإنها بالنسبة للصهيوني وطن على وشك التحقق .. ليس هذا وحسب بل إن العلامة السيميوطيقية التي يتم استدعاؤها اليوم ليست هي نفسها التي كانت تستدعي أمس لنفس الموضوع .. فما تستدعيه القدس في عقلي يختلف كثيرًا عما تستدعيه في روح جدي؛ فإن كانت بالنسبة لي قضية، فهي بالنسبة لجدي رحلة حج مقدسة .. وإن كان الصهاينة بالنسبة لي معتصبي حق وأرض، فإنهم بالنسبة لجدي قاطعو طريق، وقاطعو عادة وعبادة في الآن ذاته.

ويخطئ من يظن أن أسطورة القدس تغذيها الأديان أو أن الأديان تتصارع ومن هنا فقد نشأت قضية القدس؛ فالخلل واضح جلي بين نصوص التوراة وجغرافية فلسطين، بل إنني أستطيع أن أقول وبارتياح إن ثمة اختراقًا صهيونيًا لكتب التفسير الإسلامية ساهم في التأسيس للأسطورة الصهيونية حول القدس، وليس تفسير ابن كثير أو بدايته ونهايته ببعيد عن أيدينا، وهو يروي قصة نبي الله نوح الذي زرع كرمًا بعد الطوفان، وأثمر الكرم فأكل منه النبي نوح فتعري فانكشفت عورته، فما كان من ابنه حام إلا أن يضحك على عورة أبيه، ويدعو أخويه سام ويافت ليشاهدا عورة الأب الثمل، فيغطي الولدان الصالحان! عورة أبيهما ثم يحكيان له عما حدث من حام بعد أن أفاق نوح من سكره، فتلقى حام دعوات أبيه النبي عليه السلام عليه وعلى نسله بأن يكونوا عبيدًا لأبناء سام ويافت.

يحدد ابن كثير أسبابًا للنقل عن بني إسرائيل؛ منها الاعتبار، مستندًا إلى حديث النبي محمد الكريم، حين قال: (بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج). فأين الاعتبار في هذه الرواية التوراتية المغرصة.

مدينة مقدسة في / بين ديانات ثلاث

بدأ الخلاف أو الاختلاف حول القدس بداية من اسم المدينة حيث تعد من أكثر المدن أسماء فهي القدس وهي بيت المقدس والمسجد الأقصى ومسجد الأقصى على الاضافة وهي بيت الله كما جاء في المصباح المضي² وقيل ان بيت الله ليس اسم المدينة بل معنى بيت المقدس واسمها كذلك صهيون وإيليا وإليا بدون الياء المتقدمة واسمها ايضا اورشليم.

ويحدثنا المقدسي المؤرخ (985م) عن المسجد الأقصى بما لا يعني مكان بناء المسجد الحالي فحسب، وإنما كل ما يحيط بالفناء الكبير ووسطه قبة الصخرة، وكذلك القباب الأخرى الصغيرة، والمحاريب، وردحات العمد، وهو ما يتفق مع فتوى مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف الذي عقد في عام 1968؛ والتي اعتبرت أن المسجد الأقصى هو المنطقة التي يضمها حاليًا بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة³.

واصل التقديس كما حكى القلقشندي _ التطهير والمراد المطهر من الأدناس وقد ذكر القلقشندي في صبحه وصفًا جغرافيًا للقدس قال: طولها ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة... قال في تقويم البلدان: والقياس ان طولها سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها ثلاثون درجة وهي مبنية على جبل مستدير وعرة المسلك وبنائها بالحجر والكلس وغالب حجرها أسود وشرب أهلها من ماء المطر المجتمع بصهاريج المسجد وعين تجرى إليها عن بعد وكذلك عين سلوان وليس ماؤها بكثير⁴ المتأمل لكلام القلقشندي يرى أنه يمتلك معرفة جغرافية يمكنه ان يقدمها فقط عند الحديث عن المدينة المقدسة لكنه لا يكتفى أبداً بذلك فالمدينة كما تقدمت تملك جاذبية خاصة لصناعة

² محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري أبو عبد الله: المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، تحقيق: محمد عظيم الدين، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1985، ج 2: ص80
³ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 182.

⁴ أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: د. يوسف علي الطويل، ط1، دار الفكر، دمشق، 1987، ج 4: ص104

الاساطير وتداولها ، فنجده هو نفسه بعد ذلك بقليل يذكر ان التقويم اختلف أكثر من مرة عند بنى إسرائيل وكان أحدها خراب بيت المقدس⁵

ولأن المدينة كما هو معروف ترتبط بأواصر القربى مع الديانات السماوية الثلاث؛ فقد كان طبيعياً أن يتم تداول أخبار وأثار وحكايات تربط بين المدينة المقدسة بكل معالمها بالديانات الثلاث .. ومن تلك المعالم الهامة داخل القدس: الصخرة .. وهي الصخرة المعروفة التي بنى عليها عبد الملك بن مروان القبة؛ فهي الصخرة التي ربط فيها النبي براقه ليلة الإسراء، وهي قبلة اليهود وإليها حجهم. ومن المغالطات التاريخية التي وقع فيها بعض المؤرخين في الغرب أنهم اعتبروا أن قبة الصخرة مسجد يتعبد فيه المسلمون، وسماها بعضهم - خطأ - مسجد عمر⁶. وفوق الصخرة أثر قدم يقول البعض إنه نتيجة صعود البراق في ليلة الإسراء والمعراج، وقال السيوطي: إن الصليبيين كانوا يقولون أثناء احتلالهم للمدينة المقدسة: إنه أثر قدم المسيح عليه السلام، فيما يشير البعض من رواة الأخبار المسلمين أن هذا الأثر هو يد النبي محمد صلى الله عليه وسلم حينما صعد على الصخرة، فارتفعت الصخرة إجلالاً للنبي، فوضع يده عليها لئلا ترتفع.

وبالمدينة - كما هو معروف - كنيسة القيامة التي يحج إليها المسيحيون، كما أن بها بيت لحم وهو مزار هام جداً عند المسيحيين.. كما أن بالقدس - حسب كثير من الحكايات المتداولة - قبر حنة أم مريم بنت عمران عليها السلام⁷. وبالمدينة كذلك قبة المعراج، وقبة الميزان، وقبة السلسلة، وقبة المحشر.

كل هذه المعالم وغيرها مثل حائط المبكى أو البراق مثلاً يتنازع أصحاب الديانات حول أحقية أيها في نسبة هذا المعلم أو ذاك إليها، وقد وصل هذا النزاع إلى ما نعرفه جميعاً في الصراع العربي الإسرائيلي، وقد سبق هذا الصراع المسلح، صراع الحياة والموت صراع أهدأ وخاصة فيما يتعلق بالبراق، والذي يسميه اليهود حائط المبكى، والذي شاهدنا المرشح الديمقراطي لمنصب الرئيس الأمريكي يزوره مع مجموعة من حاخامات اليهود في سباقه

⁵ المرجع السابق: ج:6: ص227

⁶ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 182.

⁷ أحمد بن علي القلقشندي: مرجع سابق، ج 4: ص105

نحو البيت الأبيض استرضاءً لليهود، هذا الحائط الذي يدعي اليهود أنه البقية الباقية من الهيكل السليماني القديم، أثرت حوله القضية الدولية التي لم يعد أحد يتذكرها الآن؛ وذلك عام 1930، وشكلت لجنة دولية للتحقيق، ووافق مجلس الأمم في 5 مايو 1930 على تأليفها، ووافق اليهود على صلاحية هذه اللجنة، وكان لهم ثلاثة وكلاء؛ هم: المحامي مردخاي إلياش، وداود يلين (مستوطن قديم)، والحاخام موشي بلاو، وقد أصدرت اللجنة قرارها لصالح المسلمين، وكان نص القرار:

للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق العيني فيه؛ لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف، وللمسلمين أيضاً تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط؛ لكونه موقوفاً حسب أحكام الشرع الإسلامي لجهات البر والخير"⁸.

لهذه الأهمية التي يستشعرها الإنسان أيًا كان انتماءه الديني مسلماً كان أم مسيحياً أم يهودياً، لهذه الأهمية حكمت كتب التراث العربي أن نبي الله نوح بعدما انحسر الطوفان أخذ قبر آدم وحواء ونقل رفاتهما إلى بيت المقدس، وكأن المخيلة العربية أصرت على أن تدفن أبي البشر وأهمهم في المكان الذي شهد اختلاط الديانات السماوية الثلاث؛ ولهذا كان طبيعياً أن نرصد في كتب التراث العربي روايات عن أول اختلاف بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ حيث اختلف الصحابة حول المكان الذي يجب أن يدفن فيه النبي؛ فقال بعضهم: ندفنه بمكة بلده الذي ولد فيه، وقال آخرون: ندفنه بمسجده، وقال آخرون: ندفنه بالبقيع، وقال آخرون: بل ندفنه في بيت المقدس مدفن الأنبياء⁹. بل إن التراث العربي الإسلامي أصر على الربط بين بيت المقدس بالأحداث ذات الأهمية الخاصة، سواء عند السنة أو الشيعة، وهو ما تبدى مثلاً في ربطهم بين بيت المقدس وحادثة مقتل الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما .. فقد قيل – حسب صاحب تاريخ الخلفاء – "إنه لم يقلب حجر ببيت المقدس يومئذ إلا وجد تحته دم عبيط"¹⁰.

⁸ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 189، 190.

⁹ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، مطبعة السعادة مصر، 1371هـ، ج 1: ص 73

¹⁰ المرجع السابق: ج1: ص207

طبيعي إذن بعد ذلك أن تشهد المدينة المقدسة خلافات شديدة وطويلة الأمد؛ فالديانات الثلاث تمتلك حقًا دينيًا مقدسًا في المدينة، وما دام الصراع يدار على أسس دينية فلن ينتهي هذا الصراع أبدًا، وقد نجحت إسرائيل في جرننا إلى هذه المنطقة التي لا تُجدي نفعًا، فالأرض لا تنتسب لدين بل تنتسب لبشر قد يحملون دينًا وقد لا يدينون بدين أصلاً.

وللحق وجب أن نشير كذلك إلى سبب آخر وجّه الصراع العربي الإسرائيلي وجهة دينية، أو أسس له – إن صح القول – وهو الخلافة العثمانية ووثائقها الباقية التي عالجت قضية الوجود اليهودي أو حتى المسيحي في الأراضي المقدسة من منظور ديني؛ فقد كان العثمانيون يتعاطون مع قضية القدس باعتبارها مدينة إسلامية وليس باعتبارها مدينة عربية، وذلك قطعًا لأن إسلامية المدينة هو ما يؤسس لهم – كأترك – حقًا فيها، أما عروبتها فلا تعطيهما الحق بمجرد التحدث باسم المدينة وساكنيها، وها هو السلطان عبد الحميد يحدثنا في مذكراته عن أحد الخلافات بين بعض المسيحيين والمسلمين في القدس، فيقول: "لم يكن هناك أي مبرر لإراقة الدماء من الجانبين من أجل بيت المقدس، لقد سمح المسلمون للحجاج النصارى بزيارة الأماكن المقدسة في كل وقت، إن مسجد عمر من المعابد الإسلامية المقدسة، أما القدس فهي المدينة المقدسة الثالثة بعد مكة والمدينة، وهي محاطة من جميع جهاتها بالمسلمين، فليقل النصارى ما يشاؤون، أما الأراضي المقدسة فنحن أصحابها"¹¹.

نحن هنا في كلام السلطان عبد الحميد تعني المسلمين لأنها الصفة الوحيدة التي تعطيه

الحق في الدخول تحت (نحن)

¹¹ عبد الحميد بن عبد المجيد (السلطان عبد الحميد الثاني): مذكراتي السياسية، ط5، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1406هـ، ج1: ص182

أساطير البداية

ترتبط المدن في بداية وجودها - في كتب التراث العربي - ببشر بنوها، وآخرين هدموها ، وآخرين جددوها بعد هدمها، وبيت المقدس أو القدس في ذلك مثلها مثل كثير من المدن،

ولكن مثلها مثل المدن المقدسة .. بننها _ لأنها تشتمل على أماكن مقدسة _ الملائكة وذلك لأن بها بيتا محرما _ المسجد الأقصى.

تعالوا نتبع بعض ما جاء في كتب التراث العربي _ على ما فيه من اختراق إسرائيلي سنفصل القول فيه لاحقا _ حيث يذكر القلقشندي "أن أول من بنى بيت المقدس وأرى موضعه يعقوب عليه السلام ، وقيل داود والذي ذكر في تقويم البلدان أن الذي بناه سليمان بن داود عليه السلام"¹² ، ولكن الروايات التي يرويها ابن كثير وفيها أحاديث يعتمد عليها تؤكد أن أول من بنى بيت المقدس كان نبي الله إبراهيم؛ فإنه "باني بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع أولاً؟ قال : المسجد الحرام قلت : ثم أي؟ قال بيت المقدس قلت : كم بينهما؟ قال أربعون سنة. الحديث. فزع ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جده بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة وهذا مما أنكر على ابن حبان فإن المدة بينهما تزيد على ألوف السنين"¹³.

والحديث عن البدايات لا يتعلق بالمسجد بشكل عام هكذا، وإنما يطال تفاصيل معالمه؛ فقد جاء في الأخبار أن داود جعل من الصخرة التي على الهضبة مذبحه للرب، كما ورد في التلمود (توسفنا - يوما/84، 8) أن الله تعالى خلق الأرض ابتداءً من هذه الصخرة، وقال الحبر أليعازر البابلي: إن الصخرة هي أصل خلق الأرض، وأن صهيون هو سيرة العالم وهو

¹² أحمد بن علي القلقشندي: صبح الاعشى ، مرجع سابق، ج: 4 : ص 105
¹³ ابن كثير: التفسير، ج1، ص 253

كامل الجمال والبهاء. وجاء في أحد كتب التصوف اليهودي (زوهر): "إن يعقوب نام على الصخرة وهو منطلق من بيت أبيه إسحاق"¹⁴.

ويعلق د. عبد الحميد زايد على هذه الرواية التلمودية قائلاً: "على أننا نعلم أنه نام في بيت إيل على بعد قريب من نابلس، وهذا يدل على ما يهدف إليه اليهود من نقل قدسية إيل إلى أورشليم"¹⁵.

إن ما فعله اليهود من هذا النقل لقدسيتها مدينة إيل إلى مدينة أورشليم، والذي علق عليه زكي، ما هو إلا تضارب في الأسطورة الجماعية لليهود، فهم غير موحدين لا على مستوى البشر ولا على مستوى الفكرة.. تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.. وهذا التضارب في الأسطورة الحاكمة لتوجهاتهم الروحية هو أول وأهم عنصر من عناصر سقوط دولتهم المزعومة التي لا تقوم على أساس من الحق وإنما على قوة السلاح تقوم، وبالسلاح يمكن أن تسترد الشعوب أوطانها ولكنها لا يمكن أبداً أن تسرق بالسلاح ووطنًا، كما يحاولون.

وإذا كان الاضطراب بين الروايات اليهودية – على اختلاف مصادرها – واضحاً، فإن الاختلاف بين الروايات اليهودية والواقع أشد وضوحاً؛ فمن ذا الذي يستطيع أن يؤكد أي صخرة يقصدها اليهود ويقدسونها، ففي الوقت الذي يذكر فيه التلمود أن الصخرة موضع التقديس كانت ترتفع عن مستوى سطح الأرض ثلاث أصابع، فإن الصخرة الحالية التي تعلوها القبة ترتفع في بعض نواحيها عن سطح الأرض متراً على التقريب، ويبلغ محيطها عشرة أمتار، "وفي أسفلها فجوة هي بقية كهف عمقه أكثر من متر ونصف، وتظهر الصخرة فوقه وكأنها معلقة بين السماء والأرض، ويوجد عمود من خشب بين الصخرة وأرضية الكهف"¹⁶. ولا يمكن أن يرد علينا مجادل بأن الزمن غير من جغرافيا المكان، لأن عوامل الزمن تغير نعم، ولكن بعكس ما حصل، بمعنى أن يقل الارتفاع بمرور الزمن وليس العكس.

¹⁴ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 190.

¹⁵ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 190.

¹⁶ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 190.

وينقل لنا عبد الحميد زايد بعضاً من هذه الشطحات كما يسميها هو، أو الأساطير المؤسسة كما نسميها نحن، نقلاً عن كتاب التصوف اليهودي "زهر" 222/2 عما يسميه اليهود حجر الأساس، يقول: "عند خلق العالم ألقى الله حجراً كريماً من عرشه العظيم في الفضاء المظلم، فغطس فيه جزء من هذا الحجر، وبرزت بقيته في السديم، وهذه البقية البارزة كنقطة في هذا الفضاء اللانهائي بدأت تمتد من كل الاتجاهات عن يمين وشمال، وأرسيت الدنيا عليها، ولذلك يسمى هذا الحجر حجر الأساس"¹⁷. ويستطرد "زهر" شارحاً أن تكوين الأرض حول حجر الأساس – حسب زعمه – كانت على ثلاثة تكوينات؛

الأول: منطقة مستديرة حول الحجر، نورانية شفافة.

الثاني: منطقة حولها مصنوعة من مادة أقل شفافية ولكنها أكثر رقة من الأرض.

الثالث: منطقة معتمة، يحيط بها المحيط الذي يدور حول العالم.

وهذه المناطق الثلاث ممثلة في الهيكل الذي في أورشليم؛ فالمنطقة النورانية ... عبارة عن الهيكل ومدينة أورشليم، والثانية هي الأرض المقدسة (فلسطين)، والثالثة المعتمة هي بقية العالم حيث تسكن الأمم غير اليهودية من الكفار أما المحيط الذي يدور بكل شيء فهو مملكة الجن التي تحيط بالعالم، "ولم تر الدنيا قط شيئاً أجمل من تابوت العهد، وعندما أدخل تابوت العهد إلى الهيكل صاح بأية المزامير 14/132 . هذا مستقري إلى الأبد وهنا سوف أقيم. وكان صوت الروح القدس يردد هذه الكلمات على مسامع إسرائيل"¹⁸.

الرواية كغيرها من الروايات اليهودية سواء من كتابهم المقدس الذي حرفوه أو من تلمودهم الذي ينضح حقداً على الأمم والبلدان والشعوب كلها وخاصة شعب فلسطين، أو كتب التصوف التي كتبوها غير ناسين أهدافهم التي جاءوا من أجلها إلى أوطاننا، ولا يتورعون من استخدام أية وسيلة يرونها من أجل الاستيلاء النهائي على هذه الأرض التي يقولون – وهو الشيء الوحيد الذي صدقوا فيه –: إنها أرض مقدسة، أقول لا يتورعون في سبيل السيطرة

¹⁷ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 191.

¹⁸ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 191.

عليها من استخدام أية وسيلة حتى الحب المهم ألا يتركوا لنا أرضنا، لا تتعجب نعم قد يستخدمون الحب، ولا أنسى هنا مقالة قرأتها للكاتب الإسرائيلي جروسمان، كانت عبارة عن رسالة بعث بها للكاتب الفلسطيني محمد الأسعد، عنوان المقالة/الرسالة: "انظر تحت كلمة حب"، وفيها يتحدث جروسمان عن ضرورة السلام وألا يقوم الفلسطينيون بما أسماه العمليات الانتحارية، لأن ابنه لا يستطيع الخروج إلى الشارع للعب خوفاً من هذه العمليات، وقد رد عليه الكاتب الفلسطيني برسالة، عنوانها: "السيد جروسمان انظر تحت كلمة عدالة"؛ شارحاً فيها كيف أنه – جروسمان – أكثر حظاً منه لأنه يجلس مع ابنه ويحاول إزالة الخوف الذي يعتريه كل يوم، أما هو – الأسعد – فهو لا يرى ولده منذ سنوات، كما أن ابنه وزوجته في بلد آخر غير الذي يعيش فيه، فقبل أن ننظر إلى كلمة حب، من الأجدر بنا أن ننظر إلى كلمة عدالة أولاً.

وفي ظني أن جروسمان لم يكن يبعث بالرسالة حقاً إلى كاتبنا العربي، فقد كان يستخدم اسمه فحسب، ولكنه في الحقيقة كان يبعث بها إلى العالم أجمع، عبر محمد الأسعد، محاولة منه لترسيخ أسطورتهم العصرية التي يروجون لها منذ قرن تقريباً، ألا وهي: أنهم شعب يريد السلام، وأن العرب والفلسطينيين لا يريدون غير الحرب والدمار، هم يطلبون الحب، فيما نطلب نحن الحرب، تصور!

ولم يترك المسلمون الصخرة لليهود؛ ينسجون حولها حكاياتهم، فهي المكان الذي صعد منه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء في ليلة الإسراء والمعراج، ولذلك ليس غريباً أن تكون مقدسة في الحضارة الإسلامية، وفي كتب التاريخ الإسلامي الذي يرجع صلة العرب بالصخرة إلى عهد سيدنا إبراهيم الذي أخذ ولده إسماعيل إلى هذه الصخرة لينفذ ما رآه من رؤيا ذبح ولده، ثم فداؤه. بل إن ناصري خسرو المؤرخ والرحالة الفارسي الذي زار المدينة المقدسة عام 1047م، يشير خسرو إلى أنه سمع أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وولده – هكذا دون تحديد أي من أبنائه – سارا فوق الصخرة. ويستطرد ناصري خسرو قائلاً في إشارة دالة: "إن الناس يفتنون إلى قبة الصخرة من كل فج عميق"¹⁹. بل إنها منبع المياه والأنهار التي يشرب منها الناس في كل الأرض حسب رواية الطبري في تفسيره: "حدثنا أبو

¹⁹ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 199.

عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس { وأسقيناكم ماء فراتا } قال : من أربعة أنهار :
سيحان وجيحان والنيل والفرات، وكل ماء يشربه ابن آدم فهو من هذه الأنهار وهي تخرج من
تحت صخرة من عند بيت المقدس²⁰.

وليس من شك في أن هذه القداسة هي ما دفعت عبد الملك بن مروان للاهتمام بهذه
الصخرة المقدسة وهي كذلك ما جعلته يبني فوقها قبته الشهيرة، "وأحاطها بستائر وعيّن لها
خدماً لرعايتها والعناية بها، وأن الناس قاموا بالطواف حولها كالطواف حول الكعبة الشريفة
بمكة المكرمة، وأن تلك العادة قد استمرت طوال أيام الأمويين"²¹. ويعلق زايد على هذه
الرواية بأنه لا يمكن أن يتصور خليفة من خلفاء المسلمين - خاصة إذا كان قريب عهد بالنبوة
(تاسع خليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم) - يقدم على مثل هذا الفعل، ويستترد واصفاً
كيفية بناء قبة الصخرة والتقنيات التي استخدمت في بنائها وتزيينها، على أننا برغم ذلك لا
ينبغي أن نأخذ أحكام زايد على عواهنها، فقد ذكرت محاولات للحج إلى بيت المقدس قبل هذه
الحادثة بسنوات طويلة، وأول هذه الأحداث ذكرها صاحب نصاب الاحتساب؛ قال: "روى في
الأخبار أن قومًا خرجوا على هيئة الحاج إلى زيارة بيت المقدس فردهم عمر رضي الله تعالى
عنه وضربهم بالدرّة، وقال لهم: أتريدون أن تجعلوا بيت المقدس كالمسجد الحرام"²².

أما ما حدث أيام عبد الملك بن مروان؛ فيرويه صاحب مآثر الإنافة؛ حيث كان ابن
الزبير يأخذ البيعة لنفسه على الناس في موسم الحج، فبنى عبد الملك قبة الصخرة ببيت
المقدس، "وكان الناس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها، فيقال إن ذلك سبب التعريف
ببيت المقدس ومساجد الأمصار"²³.

وتروي لنا كتب التراث العربي بعضاً من الأخبار التي تعضد النظر إلى بيت المقدس
باعتباره مزار حج في بعض الفترات من التاريخ الإسلامي، فقد جاء في الخبر - نقلاً عن
"مثير الغرام" للمقدسي - أنه كان على أيام عبد الملك يتدلى من وسط قبة الصخرة درة

²⁰ محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج12، ص 386
²¹ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،
2000. ص: 192.

²² عمر بن محمد بن عوض السنامي: نصاب الاحتساب، تحقيق: مريزن سعيد مريزن عسيري، ط1، مكتبة الطالب
الجامعي، مكة المكرمة، بدون تاريخ، ج1، ص 229.

²³ أحمد بن علي القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط2، مطبعة حكومة الكويت،
الكويت، 1985، ج1، ص 129.

فريدة، وقرنا كبش سيدنا إبراهيم الذي ضحى به عن ولده، وتاج كسرى. ولكن لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين نقلت كل هذه المخلفات إلى الكعبة الشريفة²⁴. وفي رواية ابن بطوطة الرحالة الذي زار المدينة عام 1355م يحدثنا الرجل عن وجود درع من الحديد في قبة الصخرة، وأشار إلى أن الناس تقول: إنه درع حمزة بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم. على أن هذه المقتنيات المقدسة التي روى خبرها المقدسي، وابن بطوطة، لم يرد لها ذكر في الرواية التي ذكرها نصري خسرو بعد ذلك بحوالي قرنين من الزمان من زيارة المقدسي، حيث يصف خسرو القبة قائلاً: "ويتدلّى من وسط القبة مصباح من الفضة معلق في سلسلة من الفضة، وكذلك توجد مصابيح أخرى معلقة في أنحاء متفرقة من القبة نقش عليها وزنها، وهي جميعاً مهداة من الخليفة الفاطمي سلطان مصر"²⁵.

وأقرب وصف للقبة في كتب التراث العربي من الوضع الحالي؛ ما قام به أبو الحسن على بن أبي بكر الهروي المتوفى في حلب عام 611 هـ/1215م حيث زار المدينة المقدسة وهي تحت الاحتلال الصليبي وقبل أن يحررها صلاح الدين الأيوبي، واللافت في وصف الهروي الذي نقله عنه زايد، ما ذكره عن الكهف الموجود تحت الصخرة، والذي سماه الهروي كهف الأرواح؛ ناقلاً خبراً بلا سند يقول: "فقد جاء في الخبر أن الله سيأتي بأرواح المؤمنين الصادقين إلى هذا المكان"²⁶.

على ان ابن خلدون يطيل النظر بعض الشيء في أمر حكايات، أو قل أساطير البداية، فقد كانت بداية بيت المقدس أيام الصابئة، وكانوا يقربون إليه الزيت "يصبونه على الصخرة ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو اسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم ... وذلك ان موسى لما خرج ببني اسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله اباهم واباه اسحاق من قبله واقاموا بارض التيه امره الله باتخاذ قبة من خشب السنط عيّن بالوحى مقدارها وصفاتها وهيكلها وتمثيلها وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنازة بقتاديلها، وأن يصنع مذبحاً للقربان، ووصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف، فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد؛

²⁴ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 193.

²⁵ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 199.

²⁶ د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط2، سلسلة تاريخ المصريين العدد 197، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000. ص: 201.

وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت، ووضع المذبح عندها، وعهد الله إلى موسى بأن يكون هارون صاحب القربان ونصبوا تلك القبة بين خيامها في التيه يصلون إليها ويتقربون في المذبح امامها ويتعرضون للوحي عندها ولما ملكوا الشام وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الصخرة ببيت المقدس واراد داود عليه السلام بناء مسجدة على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك العهد وعهد به الى ابنه سليمان فبناه لاربع سنين من ملكه وخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام²⁷

لقد انقطعت الصلة بين موسى وسليمان في الواقع، أما في التاريخ فلم يصل بينهما سوى هذه الحكايات التي تداولتها كتب التراث العربي مرردة كالبيغاء خلف الحكايات والاساطير الاسرائيلية، والغريب ان من يرويها هو المتصدى الاول للوهم والتضليل الذي يعترى كثيرا من رواياتنا التاريخية ابن خلدون كما سنرى بعد قليل.

المهم ان كتب التراث التي روت اساطير البداية روتها بكل تناقضاتها وها هو القلقشندي وهو يحدثنا عن احدى الفرق اليهودية السامرة يخبرنا انهم يستقبلون طور نابلس ويوجهون إليه موتاهم زاعمين انه الذي كلم الله تعالى موسى عليه ويزعمون ان الله تعالى امر داود عليه السلام ببناء بيت المقدس عليه فخالف أمره²⁸

وكما اهتم المؤرخون بذكر بداية المدينة المقدسة بحشد مجموعة كبيرة من الحكايات حول هذه البداية فكذلك اهتموا برصد بداية ما بهذه المدينة من معالم تكتسب قدسية عن اهل هذه الطائفة او تلك ومن هذه المعالم او المزارات ما يتصل بالديانة المسيحية ومن ذلك ما روى عن هيلانه أم الامبراطور قسطنطين التي تنصرت وجاءت الى القدس تبحث عن الخشبة التي صلب عليها السيد المسيح "فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض وألقى عليها القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة وبنيت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كانها على قبره بزعمهم وأمرت برمي الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي

²⁷ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي: المقدمة، ط5، دار القلم، بيروت، 1984، ج:1، ص345
²⁸ أحمد بن علي القلقشندي: صبح الاعشى، مرجع سابق، ج13، ص271

مكانها جزء لما فعلوه بقبر المسيح ثم بنوا بإزاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام²⁹.

ويروى صاحب المصباح المضيء أن السيد المسيح رفع الى السماء متسقا مع الرواية الاسلامية في ليلة القدر ومن فوق بيت المقدس: "فلما كان بعد سبع ظهر لامه فقال لها لم يصبنى الا خير وامرها بان تاتيها بالحواريين... والجبل الذي ذكره القضاة ببيت المقدس يعرف الان بجبل الطور وهو مشرف على المسجد الاقصى يقول اهل الطور إنه مصعد عيسى عليه السلام "غير ان الجديد في هذه الرواية انها تضيف في نهايتها جملة تقول: "وذلك على ما توارثوه بينهم من زمان السلطان صلاح الدين فاتح بيت المقدس ومنقذه من ايدي الافرنج³⁰ وهو ما يعنى ان هذه الحكاية تم تداولها ان لم يكن ابتداءها اثناء الصراع العربي الصليبي على بيت المقدس اي ان هذه الاسطورة هي احدى الاساطير التي تم توظيفها ابان الصراع على بيت المقدس بين العرب والصليبيين وهو ما فطن له صاحب المصباح المضيء فيما يبدو حين حدد بداية تداول هذه الروايات ولذلك ختم جملته ب: "السلطان صلاح الدين فاتح بيت المقدس ومنقذه من ايدي الافرنج فالله اعلم.

²⁹ المرجع السابق، ج4، ص105.

³⁰ محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري: مرجع سابق، ج2: ص 88

أساطير النهاية

كما بدأت الدنيا هناك عند قبة الصخرة في المدينة المقدسة .. هناك أيضًا تنتهي .. وتتعدد الروايات التي ترصد ارتباط نهاية الكون ببيت المقدس، ومن ذلك ما ذكر في تفسير الآية الكريمة { لرادك إلى معاد } من رواية ابن أبي حاتم بسنده عن نعيم القاريء أنه قال في تفسير المعاد بأنه "بيت المقدس وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر"³¹.

ومن تلك الروايات كذلك بعض الأحاديث النبوية، كالرواية التي نسبت لأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم والذي يقول: (يخرج رجل من أمتي يقول بسنتي يُنزل الله عز وجل له القطر من السماء ويُخرج الأرض بركتها وتُملأ الأرض منه قسطًا وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل على بيت المقدس)³².

ما يهمننا في هذه الروايات ليس درجة صحتها من عدمها، فسواء كان النبي الكريم قد قال مثل هذا الحديث أم دُسَّ عليه فهو صحيح من الناحية الثقافية، حتى وإن كان موضوعًا من ناحية علم الحديث .. ما يهم في هذا الحديث أنه - مثله مثل غيره من الروايات - يؤكد على حقيقة راسخة بين المسلمين ألا وهي أن العالم لن ينتهي إلا وبيت المقدس إسلامية، بل ربما يكون ذلك علامة من علامات قيام الساعة. وهو ما تؤكد مجموعة كبيرة من الروايات التي تداولتها كتب التراث العربي كتلك التي أوردها صاحب تاريخ الخلفاء حول تفسير ابن بركان المفسر لأول سورة الروم (ألم غلبت الروم) من أن بيت المقدس يبقى في يد الروم إلى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ثم يُغلبون ويصير بعد ذلك دار إسلام إلى آخر الدنيا .. وقد اعتمد المفسر في ذلك على حساب حروف الآية بالأرقام. وليست آية سورة الروم هي الآية الوحيدة التي ربط تفسيرها بين بيت المقدس ويوم القيامة؛ فقد أورد الطبري في تفسيره للآية الكريمة { يوم يناد المناد من مكان قريب } أورد رواية عن قتادة يقول: "بلغني أنه ينادي من الصخرة التي في بيت المقدس"³³.

³¹ ابن كثير: التفسير، ج 3، ص 533.

³² ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ج 1: ص 317. مقدمة تاريخ ابن خلدون\مجلد 1\ط3

³³ محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج 11، ص 438

ويستطرد الطبري في رواية عن ابن بريدة عن أبيه بريدة في تفسير آية سورة القمر { كأنهم جراد منتشر } قال : ملك قائم على صخرة بيت المقدس واضع أصبعيه في أذنيه ينادي قال : قلت : بماذا ينادي ؟ قال : يقول يا أيها الناس هلموا إلى الحساب قال : فيقولون"34.

ومن الروايات الدالة والشهيرة في الآن ذاته والتي اتخذت منحى يكاد يكون شعبيًا في بعض الأحيان، ما روي عن نزول نبي الله عيسى ومقاتلته للدجال، ففي حديث طويل للنبي ورد في تفسير ابن كثير، يروي النبي صلى الله عليه وسلم، عن فتنة الدجال وأنه يحاول دخول مكة والمدينة ولكن الملائكة تمنعه، فتسأل أم شريك بنت أبي العكر رسول الله عن العرب، فقال لها النبي: (هم قليل وجلهم يومئذ بببيت المقدس وإمامهم رجل صالح فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عيسى بن مريم عليه السلام فرجع ذلك الإمام يمشي القهقري لیتقدم عيسى عليه السلام فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول : تقدم فصل فإنها لك أقيمت فيصلي بهم إمامهم فإذا انصرف قال عيسى : افتحوا الباب فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى وساج فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هاربا فيقول عيسى : إن لي فيك ضربة لم تسبقني بها فيدركه عند باب لد الشرقي فيقتله ويهزم الله اليهود). وقد وردت روايات عن النبي صلى الله عليه وسلم بمعان قريبة وروايات متعددة، عن عبد الله ابن عمر، وعن أبي هريرة؛ من طرق متعددة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر : يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله - إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)35.

هكذا ارتبطت النهاية في الأدبيات التراثية سواء منها الصحيح أو الموضوع - المهم أنه المترسخ في الوجدان العربي المسلم - ارتبطت النهاية بالقضاء على اليهود أولاً، وكان الصراع بين المسلمين واليهود صراع حتمي لا مفر منه، والخطير في أمر هذه الروايات أنها تعتمد الدين أو الأديان وقودًا حقيقيًا يغذي الصراع العربي الإسرائيلي، ونحن وإن كنا لا نغفل دور الدين في تمسك الإنسان بقضائيه، غير أننا نود التأكيد على أننا - كمسلمين - نختلف عن

³⁴ المرجع السابق نفسه
³⁵ ابن كثير: التفسير، ج1، ص768.

اليهود، أو هكذا يجب أن نفعل، في طريقة استخدامنا للدين، ففي الوقت الذي يستخدمه الصهاينة محرفين لتوراتهم لتتنطق بحقوق ليست لهم، علينا أن نستوعب من مبادئنا الدينية ما يحض على الدفاع عن الأوطان، من دون أن ننجر ف في روايات إن صدق بعضها فإن أكثرها قد انجر ف إلى الهوة السحيقة نفسها، ولكن هذه الروايات على أي الأحوال – الصحيح منها والمفترى – هي ما صنعت ما أحب أن أسميه: أساطير المدينة المقدسة.

الاختراق الإسرائيلي لقصصنا الديني

بين الدين والإبداع مساحة مشتركة .. هي مشتركة في الهدف؛ حيث الوعي ببعض من احتياجات الناس النفسية والجمالية في آن. كذلك هي مشتركة في بعض الموضوعات التي يتناولها كلاهما.

من هذه الموضوعات: القصص الديني، وقصص الأنبياء على وجه الخصوص.. كم حكى الكتب المقدسة عن الأنبياء، وكم تناص المبدعون مع هذه الحكايات على طول تاريخ الإبداع بالعربية.. حكى القرآن مثلاً عن الجنة والنار والحساب، وكذا فعلها أبو العلاء المعري في رسالة الغفران، حكى القرآن عن النبي نوح عليه السلام وأبنائه، وتناص معه أمل دنقل، حينما أصرَّ على القيام بمقابلة خاصة مع ابن نوح ذلك الابن المارق من دين أبيه.

أبدًا لم يقل المعري إن ما أخبر عنه، في رسالته، هو ما سيحدث. كما لم يقل أمل دنقل إن ابن نوح الذي التقاه هو ذلك الابن المارق الذي صرَّح النص القرآني نفسه بأنه ليس من آل نوح.

في تصوري، تكمن عظمة القصص الديني عامة في كم الاستثارات الإبداعية التي يثيرها في نفوس متلقيه، وهو ما رأينا له أمثلة عديدة سواء على المستوى الشعبي أو على مستوى الإبداع الخاص، لم يكن المعري أولهم، ولن يكون سعيد نوح آخرهم. فهل كان المعري سيكتب رسالته المعروفة لو لم يقرأ النص القرآني؟ بالطبع لا، كما أن أمل دنقل لم يكن سيقابل ابن نوح ما لم يكن قد تعرف عليه من خلال القصص القرآني الرائع.

هي مساحة صافية تلك التي يشترك فيها الدين والإبداع، مساحة من الشد والجذب الجميلين، لكنها أبدًا ليست مساحة لتبادل الأدوار، هذه المساحة الصافية لا يشوش عليها سوى دخول التاريخ طرفًا؛ فإذا ما تصورنا أن الدين يقوم بدور التاريخ، أو أن الإبداع هو الآخر يقوم بهذا الدور، عندها فحسب يفقد الإبداع سمة من أهم سماته؛ وهي التعبير الجمالي.

لا يتصور أحد أننا ننفي المعارف التاريخية التي تقدمها النصوص الدينية، غير أنها يجب أن تكون مشروطة بأنها معارف تاريخية وردت في نصوص دينية، كما أن المعارف

التاريخية الواردة في نصوص إبداعية مشروطة هي الأخرى بأنها معارف تاريخية وردت في نصوص إبداعية.

إن الأمثلة التي تدلل على ما نقول فيما يتعلق بموضوع بحثنا كثيرة، فمثلاً قصة نبي الله يوسف، لم تقل القصة القرآنية أن يوسف ملك رقاب المصريين واشتراهم لقاء إطعامهم، ولم يقل النص القرآني قط أن امرأة العزيز تزوجت يوسف وأنه أحبها، وأن أولادًا اثني عشر كانوا نتاج هذا الحب وهذا الزواج .. لم نقرأ شعراً قالته امرأة العزيز في يوسف بين طيات المصحف الشريف .. لا لم تبين له قصرًا، ولم تُحضر المعماريين والرسامين ليرسموا صورة لها هي ويوسف متعانقين .. لم يقل القرآن الكريم إن يوسف هو الآخر جرى وراء امرأة العزيز لكي يقبلها، فجرت منه، فقد قميصها من دبر كما قدت قميصه من دبر، لكن هذا هو ما صرحت به إحدى النسخ الخطية التي روت قصة نبي الله يوسف عليه السلام³⁶؛ والقصة كما وردت بالمخطوط تؤكد الاختراق الإسرائيلي الواضح فيما يتعلق بعلاقة المصريين بالنبي يوسف؛ يقول الراوي:

وفرغ القوت من بيوت الناس، حتى ما بقي في بيوت مصر ولا نواحيها شيء من طعام .. فأصبح الناس متحيرين، وأحاط بهم الضرر، وتغيرت ألوانهم، وشاهدوا أمرًا لا يطيقونه، ففتح يوسف خزانته، وجعل عليها الأمانء، ونادى مناد:

من يشتري الطعام فليأت بيت يوسف الصديق.

قال: فأتت الناس إليه، فاشتروا أول عام بما عندهم، فاشتروا منه بالذهب والفضة، حتى إنه لم يبق من أهل مصر ولا درهم واحد إلا صار في خزائن يوسف.

قال: وباعهم السنة الثانية بما في أيديهم من الحلي والجواهر، حتى لم يبق في مصر ولا نواحيها حلي ولا جواهر، ثم باعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي، حتى صار الكل إليه.

قال: ثم باعهم في السنة الرابعة بالدور والحوانيت.

³⁶ انظر فهرس المخطوطات المحفوظة بدار الكتب والوثائق المصرية، حرف القاف، قصة يوسف الصديق.

قال: ثم باعهم في السنة الخامسة بالضياع حتى احتوى يوسف عليه السلام على أملاكهم جميعًا.

قال: ثم باعهم في السنة السادسة بنسائهم وأولادهم حتى صار الكل عبيدًا له.

قال: ثم باعهم في السنة السابعة برقابهم وأقروا له جميعًا بالرق والعبودية، حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة إلا صار الجميع ممالكك يوسف عليه السلام.

قال كعب الأحبار رضي الله عنه: فملك يوسف عليه السلام رقاب أهل مصر جميعًا وديارهم وأولادهم، وأتى بعد ذلك عام فيه شدة وجوع حتى إن الرجال كانوا يأتون إلى يوسف عليه السلام ويقولون له: بعناك أنفسنا بملء بطوننا³⁷.

إن الاختراق الإسرائيلي واضح في هذه القصة وضوح الشمس، وهو ما يترجم مشاعر الكراهية من عبيد المصريين القدامى؛ وهو اختراق محكوم بمآرب سياسية كما هو واضح، اختراق حوّل موظفًا عامًا في الإدارة المصرية إلى مالك لكل رقاب المصريين الفراعنة.

إن هذا الانحراف القصصي نفسه هو الذي رسم مشاهد من الغرام بين نبي الله يوسف وامرأة العزيز، إلى الحد الذي جعل يوسف يقدّم قميص امرأة العزيز كما قدّته هي قميصه؛ يقول الراوي:

"فلما دخل عليها يوسف نظر إلى ما كساها الله تعالى من الحسن والجمال، وما ألبسها من لباس أهل الجنة، فمد يوسف يده إليها ومال قلبه لها ميلاً عظيماً، فهربت منه ودخلت مخدعاً لها، وغلقت الأبواب بينها وبينه، ويوسف يجري خلفها، حتى مسكها وجذبها من قميصها من خلفها.

قال: فأوحى الله تعالى إليه: يا يوسف؛ قدّم قميص بقميص، ومحبة بمحبة، وطلب بطلب، وهرب بهرب..

³⁷ مؤلف مجهول: قصة يوسف الصديق، مخطوطات دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص 29 من المخطوط.

قال: فأكرمها يوسف غاية الإكرام³⁸.

³⁸ مؤلف مجهول: قصة يوسف الصديق، مخطوطات دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص 35 من المخطوط.

خاتمة وتوصيات

يتضح من هذه الجولة القصيرة بين دهاليز الأساطير التي تعاطت المدينة المقدسة/القدس الشريف موضوعاً لها، يتضح أن:

- الصراع العربي الإسرائيلي هو في أساسه صراع مجموعة من الأساطير الجماعية التي يؤمن بها أطراف الصراع، وهذا هو ما أراده الصهاينة ضبطاً، أن ندخل جميعاً في صراع حول مدى صدق أو كذب أي من الأساطير الداعمة لحق أي منا في الأرض المقدسة، هذا مع الوضع في الاعتبار أن الأساطير مثلها مثل الديانات ليس بمستطاع وسم أيها بالصدق أو بالكذب، وهو ما طمحت إليه الرؤية الإسرائيلية منذ البداية وحتى الآن، حتى تبتعد بالصراع عن الحقوق الجغرافية في المكان، حقوق من يملكون الأرض منذ آلاف بل ملايين السنين بغض النظر عن الأسطورة التي يحاولون ترويجهما، أو العقيدة التي يؤمنون بها؛ هذا إن كان عندهم ما يؤمنون به أصلاً.

- كما اتضح من البحث؛ وإن كان يحتاج لتطوير أكثر، مدى الاختراق المتعمد منذ القدم لتراثنا العربي، من قبل الإسرائيليين، بهدف إثبات أحقيتهم في أرضنا العربية، وهو ما يجب التنبيه إليه من أن لأخر، من الدرس الواعي لكتب تراثنا العربي المخترق بالإسرائيليات طولاً وعرضاً، ولا يجب أن يمنعنا أحترامنا وإجلالنا لهذا المفكر أو ذاك من أخذه بعين النقد، فتصويب رؤية أجيالنا القادمة تجاه ما يقرؤنه من كتب التراث خاصة فيما يتصل بحقوقنا العربية المشروعة في أرضنا المغتصبة من قبل العدو الصهيوني، هذا التصويب مطلب أول وأساسي في معركتنا الراهنة.

- وضح لنا من البحث غفلة كتابنا في العصر الحديث منذ بداية الصراع العربي الإسرائيلي وراء المقولات الصهيونية من أن لهم حقاً تاريخياً أم لا، وظني أن اليهود لم يكن هدفهم إثبات حق تاريخي؛ سواء كان ثقافياً أو دينياً، في المدينة المقدسة، بل كان هدفهم الرئيس مجرد فتح باب النقاش والجدال

حول هذه النقطة، وعدم إغلاقه، حتى يجري الكتاب والمفكرون العرب وراء الحقوق الدينية، موجودة أو غير موجودة، ويتكون العمود الأساسي للخلاف، وهو أي لغة تتكلم هذه الأرض؟ أي جنسية تسكن هذه الأرض؟ أي لون وأي عرق بشري يسكن هذه الأرض ويملكها أباً عن جد إلى ملايين الجدود؟

هكذا نجح الصهاينة في جرننا إلى المنطقة التي لا تحتل التصديق أو التأكيد كالجمل الإنشائية، فغفلنا عن الجمل الخبرية الواضحة التي يمكن أن تشير فيها للصدق والكذب بلا أي صعوبة، وعليه ينبغي أن ندرك من الآن فصاعداً، أن الخلاف لا يمكن أن يوتي ثماره بالنسبة لنا - العرب - إلا إذا أدرناه كعرب أولاً وأخيراً، بعيداً عن أي ديانات، وبعيداً عن كل الأساطير، بمعنى أن نبرز مثلاً تلك الأسر التي تخدم كنيسة القيامة، من يملك مفتاح المدينة المقدسة، من يحمل مفتاح الكنائس والمساجد منذ سنين ليس لها عدو؟ بغض النظر عن دياناتهم بل بالنظر إلى أجناسهم، لغتهم العربية ... إلخ.